عصر جلال الدين السيوطي والحياة العلمية فيه

د. محمد زهير البابا

ازدهرت العلوم بصورة عامة والطب والفلك بصورة خاصة في عصر الفاطميين • وكان من أهم آثارهم بناء جامع الأزهر ، الذي تحول الى جامعة كانت ولم تزل يؤمها طلاب العلم من مختلف أقطار العالمين العربي والاسلامي •

وخلال حكم الأيوبيين لمصر وبلاد الشام أنشأوا عدداً كبيراً من البيمارستانات والمدارس في القطرين الشقيقين • وقد تخرج في تلك المؤسسات عدد من الأطباء والصيادلة والكحالين والجرائحيين، انتشروا وذاع صيتهم ومؤلفاتهم في كثير من البلاد ، بالاضافة الى عدد كبير من العلماء والفقهاء والمؤرخين •

وفي عام ٦٤٨ هـ ـ ١٢٥٠ م قتل الملك طوران شاه ، ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكان آخر ملوك الأيوبيين، ولما اختلف الناس على من يبايعون توسطت شجرة الدر ، زوجة الملك الصالح بين الأمراء ، فبايعوها بالملك ، وبهذه الصورة أصبحت أول امرأة ملكت في الاسلام •

الا أن النزاع لم يلبث أن قام بينها وبين الأمراء المماليك، فاستقالت مرغمة. وبويع بعدها لعز الدين إيبك ، فلقب بالملك المعزّ ، فتزوجها وأفضت السلطة الى المماليك الأتراك ، الذين توارثوها من بعده •

كان الملك الصالح أيوب آخر الملوك الأيوبيين قد لجأ الى شراء المماليك ليكونوا سنداً له في الحكم داخل البلاد ،وليستعين بهم لصد الغزوات الخارجية •

★ أستاذ باحث في التراث العلمي العربي •• عضو مجمع اللغة العربية بدمشق •

وكان أكثرهم يستقدم من بلاد الترك • وقد أطلق على أوائل من جلب من هؤلاء اسم المماليك البحرية ، ذلك لأن الملك الصالح أسكنهم في منازل شيّدت بجزيرة الروضة وسط النيل •

ولما كثر عدد هؤلاء المماليك وقويت شوكتهم ساد البلاد الفوضى والقلق في أول الأمر ، بسبب الحروب والثورات والنزاع على السلطة • ولكن المماليك الأتراك استطاعوا أن يوطدوا حكمهم ، خاصة بعد نجاحهم في رد غارات المغول في عين جالوت ، بقيادة السلطان قطز عام (٦٥٨ هـ ــ ١٢٦٠ م) ، كما استطاعوا تطهير بلاد الشام من بقايا الصليبين تحت قيادة السلطان الظاهر بيبرس •

ومن مشاهير السلاطين الأتراك المنصور قلاوون ، الذي كان محباً للانشاء والعمران • أمر ببناء بيمارستان ، في القاهرة ، يعد من أجمل وأوسع البيمارستانات في العالم الاسلامي ، وذلك عام (٦٨٣ هـ ــ ١٢٨٤ م) ، وألحق به مدرسة لطلاب العلم وداراً للأيتام •

لقد أكثر السلطان قلاوون من شراء المماليك الجراكسة ، وأنزلهم في برج القلعة بالقاهرة ، ليبعدهم عن الاتصال بسكان البلاد ، ومن هنا جاءت تسميتهم بالمماليك البرجية •

وكان هدف السلطان قلاوون من جلب المماليك الجدد هو أن يكوّن فرقة جديدة من المماليك يعتمد عليها ضد منافسيه من كبار مماليك الأتراك ، ولتكون سنداً له لدوام المُلك له في ذريته من بعده في مصر وبلاد الشام •

لذلك رأى أن تكون هذه الفرقة من جنس آخر غير الأجناس التي كانت تتألف منها مماليك مصر ، فأعرض عن شراء الأتراك والتتار والتركمان ، وأقبل على شراء المماليك الجراكسة ، الذين كانوا ينتمون الى بلاد الكرج (جورجيا) •
ومما شجع السلطان المنصور قلاوون على شراء عدد كبير منهم ، تجاوز ثلاثة آلاف مملوك ، هو كثرة الغلمان الجركس في أسواق الرقيق ، بسبب تعرض بلادهم لغزوات المغول ، وبالتالي لانخفاض أثمانهم •

اتصف المماليك الجراكسة بجمال الصورة ، وقوة الجسد والشجاعة • وقد

خدموا أسرة قلاوون وأخلصوا لها ودافعوا عنها • وقد حرص السلطان قلاوون أن يحول دون اتصالهم بغيرهم من المماليك ،ومنعهم من النزول الى المدينة ليلا •

ونظراً للمعاملة الحسنة والمميزة التي كانوا يعاملون بها ، من قبل الأسرة الحاكمة، فقد حلت روح التنافر والبغضاء بينهم وبين المماليك الأتراك . ولما ازداد عدد المماليك الجراكسة وقويت شوكتهم صار لهم رأي مسموع في انتخاب السلاطين ، لكنهم لم يتجرأوا على طلب السلطان لأنفسهم •

لقد بدأ الخلاف بين المماليك الأتراك والجراكسة في عهد السلطان خليل ، وانتشرت الاضطرابات بعد مقتله عام ٦٩٣ هـ • وبعد سكون الفتنة نزل المماليك الجراكسة من القلعة ونفي قسم منهم الى بلاد الشام •

الا أن الأمير برقوق ، وهو أحد المماليك الجراكسة ، استطاع بفضل ذكائه وطموحه أن يصل الى مرتبة أتابك العسكر ، أي القائد العام للجيش ، عام (٧٨٠ هـ/١٣٧٨ م) • وكان يحكم مصر في ذلك الوقت السلطان علاء الدين علي ، وهو أحد أحفاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وكان عمره لا يتجاوز الثامنة •

لقد كان باستطاعة الأمير برقوق أن يزيح هذا السلطان القاصر عن عرشه ويحل محله ، وخاصة بعد وفاة الأخير بعد ذلك بثلاث سنوات • الا أن عائلة قلاوون كان لها منزلة خاصة في نفوس الشعب المصري • ذلك لأن العصر الذي حكمت فيه كان يمثل عصر ازدهار اقتصادي وأمني وعلمي • ولا شك أن الفضل في ذلك يرجع الى السلطان المنصور قلاوون في ارساء هيبة الحكم ، واحاطة اسم أسرته بهالة من المجد ، لذلك احتفظت هذه الأسرة بمنصب السلطنة حتى أواخر القرن الثامن للهجرة •

لقد انتهز الأمير برقوق فرصة وجود سلطان قاصر على الحكم فعمل على اكتساب محبة الشعب وثقته ، فسعى لخفض المكوس والضرائب ، وسك نقوداً جديدة بدلا من النقود الزائفة ، كما سعى لتنصيب أنصاره ممن المماليك الجراكسة في الوظائف المرموقة • وقبيل وفاة السلطان علاء الدين جرى اجتماع حضره كبار الدولة ، فقام أحد أنصار الأمير برقوق وقال ان الوقت قد ضاق ، ونحن محتاجون

لسلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ، فأجمع الحضور على خلع السلطان الصغير وتنصيب الأمير برقوق، الذي تلقب بالملك الظاهر عام (٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م) وقد استمر حكم السلاطين الجراكسة حتى عام (٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م) • وتعاقب على عرش السلطة (٢٣) سلطاناً كانوا جميعاً من الجراكسة عدا اثنين يرجعان الى أصل يوناني وهما خشقدم وتمربغا • كان المماليك الجراكسة زعماء أو أمراء اقطاعيين أكثر منهم سلاطين • لذلك كان التناحر والتنافس والقتال بينهم قائماً •

وكثيراً ما كان الأتابك (قائد الجيش) يغتصب السلطة ، وخاصة اذا كان ابن السلطان المتوفى أو المغدور طفلا لا يقوى على حماية حقوقه • فيتولى الأتابك الوصاية عليه ، ثم لا يلبث أن يخلعه أو يسجنه أو يقتله ليأخذ مكانه •

وقد عانت مصر خلال حكمهم كثيراً من الويلات بسبب منازعاتهم المستمرة وصراعهم الدامي على تولي الحكم • يضاف الى ذلك تعسفهم في فرض الضرائب على الشعب واستيلائهم على أراضيه واحتكارهم لقوته أحياناً •

لقد أدخل المماليك الأتراك والجراكسة نظاماً اقطاعياً عسكرياً في مصر وبلاد الشام • فكانوا يتهافتون على مصادرة الأراضي الزراعية والأملاك الخاصة • لذلك لجأ أثرياء المصريين والسوريين الى نظام الوقف ، الذي يعتمد بالأصل على فعل الخير، كانشاء المساجد والبيمارستانات والمدارس والزوايا والخانقاهات • ووقفوا الأملاك والأراضي الزراعية ليصرف ريعها لصيانة تلك المنشآت ، ولدفع رواتب العلماء والفقهاء والأطباء، والقائمين على ادارتها وخدمتها • ولشراء ما يحتاجه المرضى من الفقراء وطلاب العلم من غذاء ودواء •

بقي المماليك في مصر وبلاد الشام يؤلفون طبقة ممتازة ، منفصلة عن بقية أفراد الشعب • وكانوا يختارون زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم ، يشترونهن من النخاسين • وكان لا يحق لأبناء الشعب، مهما علت مرتبتهم ومكانتهم ، وبلغ غناهم شراء المماليك ، ومن خالف ذلك يتعرض للعقوبة • كما أن ركب الخيل كان حقاً لفرسان المماليك دون غيرهم ، حتى أن بعض القضاة والفقهاء ، بالرغم مما كانوا يتمتعون به من مكانة واحترام ، كانوا يتعرضون للاهانة ، ويجبرون على ترك ركوب الخيل ، والاكتفاء بركب الحمير أو البغال •

كان المماليك يشعرون بأنهم غرباء عن أهل البلاد • لذلك حرص أكثرهم على اظهار الاحترام تجاه العلماء والفقهاء وأصحاب الفرق الصوفية ، لأن ذلك يقربهم من قلوب عامة الشعب ، ويكسبهم ثقة واحترام البسطاء منهم •

لقد اعتنى سلاطين المماليك بصورة عامة بانتقاء مماليكهم ، بحيث يكونون أصحاء الأجسام ، سالمين من العلل والأمراض • كما اعتنوا بتعليمهم وتدريبهم ، والحفاظ على صحتهم ، وتدبير طعامهم وشرابهم • ولما كان هؤلاء المماليك ينتمون الى بلاد عديدة ، ويتكلمون لغات أو لهجات مختلفة ، ولهم عادات وتقاليد متوارثة ، لذلك كان يخصص لكل مجموعة عرقية بناء خاص أطلق عليه اسم الطباق • ويشرف على ادارة كل طباق عدد من الطواشين لتربية وتدريب صغار المماليك • كما كان بعض الفقهاء يترددون عليهم لتعليمهم القرآن الكريم ، والخط وأحكام الدين الاسلامي •

وكانت تصرف لصغار المماليك رواتب شهرية (جامكية) ، وذلك عند مغادرتهم الطباق للالتحاق بخدمة الأمير أو السلطان ، حين بلوغهم سن الرشد • وبعد اتقانهم فنون القتال ، وخدمتهم بالجيش ، وتقدمهم في السلك ، تمنح لهم الاقطاعات والعبيد والجواري ليعملوا في خدمتهم • وكان السكن والاقطاع يتناسبان مع رتبة ونفوذ المملوك •

□ الحياة العلمية في مصر وبلاد الشام خلال عصر المماليك :

لقد ازدادت أهمية مصر في العالم العربي ـ الاسلامي في عصر المماليك باعتبارها قلعة العروبة والاسلام • واستُدعي العلماء والفقهاء ، ورحِّب بهم ، عند مجيئهم لاجئين من الأقطار العربية والاسلامية، ليقوموا بنشر العلم والدين بين أفراد الشعب • وأصبحت المدن الكبرى في تلك الأقطار تضم مراكز علمية التقى فيها العلماء الوافدون بالعلماء المستوطنين وكان من مظاهر هذا النشاط العلمي بناء الكثير من المدارس والجوامع والمكتبات ودور الحديث والبيمارستانات والزوايا• وقد ازدادت أهمية مصر خاصة بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، وحرق المغول والتتر الكتب والمكتبات التي كانت تضم كنوز التراث العربي • وقد ساعدت الحروب الصليبية المتتالية في نشر الخراب ونهب خيرات البلاد في بلاد الشام بصورة خاصة •

لقد فر الى مصر جماعات كثيرة من علماء العراق والشام حاملين معهم العلم والكتب ، فلاقوا كل احترام وتشجيع من سلاطين المماليك ، كما قدم الى مصر

أيضاً كثير من علماء ووجهاء المغرب بقصد الحج ، أو فراراً من الاضطرابات التي حصلت في المغرب وبخاصة حينما انتقلت السلطة من يد المرابطين الى يد الموحدين، ويكفي أن نتذكر ما قاله ابن خلدون في معرض حديثه عن عصر المماليك « واختص العالم بالأمصار الموفورة الحضارة ، ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر ، فهي أم العالم وإيوان الاسلام ، وينبوع العلم الضائع » لقد ورثت مصر الزعامة الدينية والسياسية والعلمية في العالمين العربي والاسلامي بعد سقوط بغداد على يد هولاكو في (١٠ شباط ١٢٥٨ م) ومقتل المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين، وبقيت كذلك حتى نهاية عصر المماليك .

لقد أعلن أمراء سورية بعد سقوط بغداد خضوعهم لهولاكو، لأنهم كانوا أعجز من أن يقفوا أمام جحافله . أما مماليك مصر فكانوا أول من وقف في وجه الغزاة ، وذلك حينما اكتسح المغول المدن السورية ووصلوا فلسطين ، فرد عليهم المماليك بهجوم قاموا به بقيادة قطز وبيبرس في ٣/٩/١٢٦٠ م وأنزلوا بهم الهزيمة في عين جالوت قرب مدينة الناصرة . ومما ساعد المماليك في هذا الانتصار انهماك هولاكو في حرب مع بركا خان ، رئيس القبائل الذهبية في بلاد القوقاز .

وبعد معركة عين جالوت قام القائد بيبرس بقتل السلطان قطز ، لأنه وعده بولاية حلب ثم أخلف وعده . لقد أظهر بيبرس بسالة نادرة في قتال المغول لذلك بايعه الأمراء سلطاناً عليهم . ولكي يدعم بيبرس سلطته استدعى الى القاهرة أحد أفراد الأسرة العباسية ، ونصبه خليفة على المسلمين ، تحت اسم المستنصر بالله . وبالرغم من أن هذه الخلافة كانت وهمية، اذ لم يكن لها بالواقع أي تأثير فعلي في ادارة الدولة ، من الناحيتين الدينية والسياسية، لكنها اعتبرت من الأمور التي دعمت سلطة المماليك في العالمين العربي والاسلامي ، حتى سقوطهم وسقوطها عام ١٥١٧ م . وذلك بعد معركة مرج دابق، التي حصلت بين القوات العثمانية بقيادة السلطان سليم الأول ، وقوات المماليك بقيادة قانصوه الغوري .

كان تحصيل العلوم، الدينية والدنيوية، هو الوسيلة الوحيدة التي يتمكن بواسطتها أبناء البلاد من الحصول على وظائف مرموقة في الدولة ، كالقضاء ، والافتاء ، ورئاسة الحسبة والبيمارستانات ، والتدريس والقاء خطب الجمع والأعياد في المساجد الكبرى والاشراف على أوقاف المسلمين ، بالاضافة الى ممارسة الطب ، وبيع الأدوية والعقاقير ، وغير

ذلك من المهن المرتبطة بأمر الدين والدنيا ٠وكانت أكثر هذه المهن تمارس في المدن الكبرى، أما أبناء الريف فكانوا محرومين من العلم والخدمات الصحية ، لذلك انتشر فيهم الجهل والمرض والفقر ٠ وكانوا ينتهزون الفرص للفرار الى المدن هرباً من شظف العيش وظلم المماليك المسيطرين على أرضهم ورزقهم ٠

لقد أشار المقريزي وابن تغري بردي والعيني وابن أياس وغيرهم من المؤرخين المصريين الى حرص المماليك في مصر على التوسع والاحسان والصدقة طوال شهر رمضان ٠ فقد اعتاد السلطان برقوق أن يذبح كل يوم من أيام رمضان خمساً وعشرين بقرة يتصدق بلحومها ،مع ما يُطبخ من الطعام ويوزع من آلاف الأرغفة من الخبز ٠ والتي كانت توزع على أهل الزوايا والجوامع والخانقاهات والسجون ٠ أما الفقراء المعدمون فكانت مطابخ السلطان في شهر رمضان مفتوحة لهم في وقت الافطار ٠

وكان بعض سلاطين المماليك يعتقون خلال شهر رمضان ثلاثين عبداًمن الرقيق، بعدد أيام الشهر ، كما كانوا يصرفون لطلاب العلم والعلماء رواتب اضافية خلال شهر رمضان ، كل ذلك تكفيراً عن خطاياهم أو تظاهراً بالتقيد بأحكام الدين ٠

لقد حظي أصحاب العمائم في ظل الحكم المملوكي بقسط وافر من العطف ، أما بقية أفراد الشعب من تجار وعمال و فلاحين فلم يلاقوا إلا الذل والهوان ونهب الأرزاق ٠ لذلك كثرت المجاعات وانتشرت الأوبئة وشاعت الفتن واختل الأمن بصورة عامة ٠

لقد اشترك سلاطين المماليك مع أهل الاحسان من المصريين في انشاء الزوايا والخوانق والربط٠ وكان لكل واحدة من هذه المنشآت مهمة تقوم بها ، فالزاوية بالأصل مسجد صغير أو دار يجتمع فيه أصحاب احدى الطرق، للصلاة والتدريس ولأداء شعائر الطريقة ، وقد وصف ابن بطوطة حياة سكان الزوايا باسهاب ٠

أما الخانقاه فهي كلمة فارسية تُجمع على خوانق أو خانقاهات٠ وهي تدل على البناء الذي كان يقطن فيه المتصوّفون ، تحت اشراف شيخهم الذين يخضعون لأوامره خضوعاً أعمى ٠ والى جانب الخانقاه أو في داخله مسجد ومكتبة وحمام ومطبخ وخزانة للأشربة والأدوية ٠

أما الرباط فهو بناء يشبه القلعة ،كان يقطنه الجنود المدافعون عن الثغور • وقد انتشرت بين الجنود المرابطين أفكار المتصوفين ، فصاروا يجمعون بين حياة المجاهدين والمتدينين •

عرف الشعب المصري التصوف زمن الحكم الفاطمي ، ولكنه كان تصوفاً مقصوراً على فئة محدودة من أصحاب العلم والتدين • أما في عصر المماليك فقد ازداد عدد طوائف المتصوفين ، كما ازداد عدد المريدين • وكان لكل طائفة شيخها وشعارها وعلمها وزواياها وخانقاها • كما كان لها مقابر خاصة في أطراف القاهرة محاطة بالأسوار • ومن أشهر هذه الطرق : الأحمدية ، المنسوبة الى الشيخ أحمد البدوي المدفون في طنطا ، وكان شعارها اللون الأحمر • وهناك الطريقة الرفاعية ، التي تنسب الى أبي العباس أحمد الرفاعي ، وشعار أصحابها العمائم السوداء •••

ان مبدأ التصوف مبني على التقشف في الملبس والمأكل ومباهج الحياة • واشتق اسم التصوف من الصوف الذي كانت تصنع منه ملابس المتصوفين • أما طعامهم فكان زهيداً وقليل التنوع ، وكان كثير منهم يعانون الصيام أكثر أيام السنة • ولكل طريقة شيخ يأتمر أفرادها بأمره ، هو الذي يُلبس كل مريد جديد خرقة التصوف •

لقد ناصر كثير من سلاطين المماليك بمصر حركة التصوف ، وشاركوا الشعب في الاعتقاد بالصوفية والعطف على المتصوفين • فالسلطان برقوق أنشأ لهم بين القصرين مدرسة ضمت كثيراً منهم ،وقرر لهم المرتبات • حتى ان زوجته غلب عليها التصوف ، فاتبعت الطريقة الأحمدية فنسبت اليها • وحينما توفيت غطي نعشها بخرقة مرقعة ، هي رمز الفقر والتصوف ، وسار أمام جنازتها حملة أعلام الطريقة •

استطاع سلاطين المماليك الجراكسة باستمالتهم لأصحاب الفرق الصوفية ، الذين يمثلون الطبقة الفقيرة الزاهدة بالطيبات، والراغبة عن الدنيا ، امتصاص النقمة التي تتولد عادة من وجود التباين الطبقي في المجتمع ، فانتشرت بذلك روح الكسل والتواكل ، والقبول بالأمر الواقع والايمان بالخوارق والمعجزات •

لقد كانت القاهرة حافلة بدور العلم والعلماء • كما كانت تضم عدداً كبيراً من

المكتبات العامة والخاصة • وكانت أسواق الوراقين مكتظة بالكتب والكراريس المخطوطة • وهذا ما عوّض عن الخسارة الجسيمة التي أصيب بها التراث العلمي والأدبي بعد خراب ونهب بغداد وحلب ودمشق وغيرها من المدن •

لقد ذكر المقريزي في خططه أن سوق الكتبيين بدمشق قد احترقت عام ٦٨١ هـ، ومن جملة ما احترق فيها مكتبة لتاجر يدعى شمس الدين ابراهيم الجزري ، وكانت تحوي خمس عشرة ألف مجلد • وهذا يدل على أن دمشق كانت تحفل كالقاهرة بعدد كبير من العلماء ودور العلم ، كما كان يقصدها أيضاً الطلاب والعلماء من جميع الأقطار العربية والاسلامية •

كانت مجالس العلم والفقه والأدب تعقد في الجوامع ، كما كانت المناظرات تعقد بالقاهرة أحياناً في قصر السلطان وبتشجيع منه وحضوره •

أما العلوم الأساسية والتطبيقية فقد تأخرت خلال العصر المملوكي ، لقلة عدد الباحثين فيها ، وخاصة العلوم الطبية • ذلك لأن طرق تشخيص الأمراض لم تتقدم ، كما أن المواد الأولية المستعملة في المداواة ، وخاصة العقاقير المجلوبة من أقطار الشرق الأقصى ، أصبحت بعيدة المنال وغالية الثمن ، لصعوبة النقل وفقدان الأمن • لذلك اضطر الأطباء ، وكان أكثرهم من رجال الدين ، الى استعمال العقاقير المحلية ، والاعتماد على الكتب القديمة المؤلفة في الطب النبوي ، أو بعض الكتب والرسائل المجتزأة من الموسوعات الطبية العربية •

من المعلوم أن جميع أفراد الشعوب ، القديم منها والحديث ، حينما تنتشر بينهم الأمراض ، وتعم الأوبئة والمصائب الطبيعية ، يزداد لديهم الايمان والتسليم بالقدرة الالهية، حتى يبلغ الأمر الى التصوف والزهد •

لقد عانى الشعب المصري من حكم المماليك القساة الشيء الكثير كما توالت عليه سنوات عجاف وزلازل وطاعون ، فازداد عدد المرضى من الفقراء والمعدمين ، وكثرت الوفيات وخاصة بين أبناء الريف وفي أحياء القاهرة المكتظة بالسكان •

ونظراً لقلة عدد الأطباء وندرة الدواء ، وعدم نجاعته عند وجوده ، فقد أخذ الناس يتجهون الى العبادة ، والى زيارة أضرحة أصحاب الكرامات من الأولياء الصالحين • وكثر الرجال المتخصصين بكتابة الحُجب وقراءة التعاويذ ، وتبخير المنازل والسكان لطرد الشياطين •

في هذه البيئة ، المتاخرة علمياً وصحياً واقتصادياً ظهر العالم جلال الدين السيوطي •

كان الامام السيوطي عالماً موسوعياً، تطرق في مؤلفاته لمواضيع مختلفة ، وكان سريع الكتابة غزير الانتاج • وقدأحصى مؤلفاته أحد تلاميذه ، وهو الحافظ شمس الدين محمد الداوودي ،فبلغت الخمسمائة ، بين رسالة وكتاب وموسوعة ، طبع منها ما يزيد على المائتين •

لمؤلفات السيوطي طابع خاص ، اذاما قورنت بالمؤلفات العربية التي ظهرت قبل زمانه • ذلك لأن هذا العالم عاش في عصر يعتبره المؤرخون عصر انحطاط ، ذلك لأنه لم يظهر فيه مؤلفات أصيلة •

ولكن حينما نطلع على العلوم التي درسها السيوطي ، والكتب التي ألّف فيها ، والمراجع الكثيرة التي اقتبس منها ، نؤمن بأنه باحث متعمق وفذّ • ويعود اليه الفضل في حفظ واحياء كثير من مؤلفات من سبقه من العلماء •

لقد انصرف السيوطي بصورة خاصة للتأليف في علوم القرآن والحديث واللغة وتراجم العظماء • وانتشرت وراجت مؤلفاته أثناء حياته ، فاكتسب بذلك شهرة كبيرة وثقة بالنفس •

وكان يُحبّ أن يُطلق عليه اسم امام القرن العاشر للهجرة ، واسم مجدد الدعوة للاجتهاد، وهذا ما جلب اليه النقد والحسد •

لقد ظهر في عصر السيوطي كثير من أهل الكرامات ، والمدّعين بأنهم رأوا الرسول (ﷺ) بالمنام واليقظة ، ومنهم السيوطي • ولما ثار بعض العلماء عليه ، لهذا الادعاء ، ألف كتاباً عنوانه (نور الحلك في جواز رؤية النبي والملك) • وقد سار تلميذ له ، يدعى محمد بن سالم الطبلاوي ، على خطاه من بعده فأقبل الناس عليه واشتهر أمره •

★ ★ ★

□ مراجع البحث :

١ ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمريزي •
٢ ـ النجوم الزاهرة : لابن تغري بردي •
٣ ـ بدائع الزهور : لابن أياس •
٤ ـ صبح الأعشى : للقلقشندي •
٥ ـ كتاب العبر : لابن خلدون •
٦ ـ الكواكب السائرة : لنجم الدين الغزي •
٧ ـ خطط الشام : لمحمد كرد علي •
٨ ـ المماليك : د• الباز الريني •
٩ ـ تاريخ المماليك : د• عادل زيتون •